13 me Année No. 651

Lundi—24—12—1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مصر ٨٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٥١ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٩ محرم سنة ١٣٦٥ — ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

معرفة الطريق ...

للأستاذ عباس محمود العقاد

قد يصل المرء إلى المعرفة الجوهرية عرضاً ، وهى التى نسميها هنا بمعرفة الطريق

وقد احتاجت معرفة الطريق فى عصرنا هذا إلى شىء من الإنصاف بعد أن جار عليها الناقدون كل الجور ، وزعموا أن النظرة العرضية لا تؤدى إلى معرفة يعتد بها على الإطلاق

وفى اعتقادنا أن تاريخ المذاهب الفكرية كلها إنما هو تاريخ جور واعتدال ، أو تاريخ إجحاف وإنصاف ، أو تاريخ تجاوز للحد ورجوع إليه ، وقد يكون الرجوع إلى ما دون الحد بكثير أو قليل ، فيحتاج الفكر إلى رجعة أخرى ليستقر على الحد الصحيح

أفرط الناس فى الإيمان بالمنطق ، ثم أفرطوا فى الإيمان بالسماع ، ثم أفرطوا فى الإيمان بالعلوم التجريبية ، ثم جمعوا بين المنطق والسماع والعلوم التجريبية فى تقديرات علم النفس الحديث ، ثم لعلهم يعودون كرة أخرى إلى حدود المنطق السليم ، ولكن لا وراء الحدود فى هذه المرة ولا أمام الحدود ، بل على سواء الحد الصحيح

ومن الأراجيح الفكرية التى تجاوزت الحد جيئة وذهوباً أرجوحة الكلام فى مشاهدات السائحين ، أو تعليقات الناظرين إلى الأمم من عرض الطريق ؛ فقد أنكرناها وغلونا فى إنكارها كأن النظرات العارضة لا تميز أمة من أمة ولا مدينة من مدينة ، وكأنها لا تطلب لذاتها فى بعض الأحيان للدلالة على حكم الفاجأة الأولى ، وكثيراً ما تكون الفاجأة الأولى هى الميز الواضح بين الناظرين كما تكون هى الميز الواضح بين المنظورات

كان « فيليب جويدالا » الأديب الأسبانى أصلا والإنجليزى نشأة يعبر بالقاهرة ، فسألته : أتنوى أن تكتب شيئاً عن رحلتك؟ فقال ضاحكا : لا أظن أن أيامى القصيرة فى هذه الرحلة تكفى لتأليف الكتب فى موضوعها . ثم قال : لعلى أنا السائح الوحيد الذى قضى فى روسيا نحو أسبوع ، ولم يخرج منها بموضوع كتاب .

ومراد الأديب بما قال أن يسخر من عجلة المؤلفين فى الحكم على الشعوب التى يعبرون بلادها ولا يطيلون المقام بين أهلها ، وهو على حق فى هذه السخرية إذا كان الموضوع الذى يتصدى له أولئك المؤلفون العابرون مما يحتاج إلى إطالة الدرس وكثرة المراجع والأسانيد ، ولكن السخرية جائرة على أولئك المؤلفين إذا كان همهم الأكبر تسجيل ما شاهدوه وما أحسوه ووقع هذه المشاهدات

فى أذهانهم وتخيلاتهم للوهلة الأولى ، فإننا نخسر كثيرا من حقائق المشاهدات إذا أهملنا منها الجانب الذى يفاجئنا بآثاره النفسية ، ولو تغير حكمنا عليها بعد ذلك ، لأن الآثار التى تتغير هى أيضاً صورة من صور الدلالة ، ولون من ألوان الشعور والتفكير .

خطر لى هذا الخاطر وأنا أستمع اسماً من الأسماء تغلب فيه النسبة إلى بلد من البلاد المصرية .

فرجعت بى الذاكرة إلى العهد الذى كانت النسبة الإقليمية تغلب فيه على معظم الأسماء إن لم تغلب على جميع الأسماء .

فكنا نسمع مثلا أسماء : على الجرجاوى ، وحسن الأسيوطى ، ومحمد الشرقاوى ، وأحمد الفيومى ، وحسين المنياوى ، وموسى الشندويلى ، ومحمود الدسنهورى ، وكثيراً من أشباه هذه الأسماء المنسوبة إلى الأقاليم .

ثم عبرت فترة على الديار المصرية قلت فيها الأسماء المنسوبة ، ثم أوشكت أن تزول .

ألا يدل مجرد الاستماع إلى أسماء هذين الجيلين على تاريخ الوطنية المصرية منذ خمسين أو ستين سنة ؟ ألا يفهم منه أن المصريين قد شعروا بوطن عام تنطوى فيه الأقاليم بعد أن كانت أوطانهم فى رأيهم هى تلك الأقاليم التى حجبت عنهم النظر إلى « الوطن العام » .

وتسمع بين الأسماء اسم البحيرى والشرقاوى ولا تسمع اسم الغرباوى أو الغربى منسوباً إلى إقليم الغربية ، بل ينسب الناس أبناء هذا الإقليم إلى بلادهم : كالطنطاوى والدسوقى والمحلاوى والسنطاوى ، وغيرها من المنسوبات إلى بلاد الغربية وقراها . فهل من العجلة أن يفهم من ذلك أن التقسيمات الإدارية لم تكن مما يحفل به المصريون فى عهدهم الغابر . وإن أسماء الحكومة غير أسماء الشعب فى لغة الجماهير ؟ ألا يلاحظ من هذا أن الموقع هو المقصود من نسبة البحيرى والشرقاوى وليس هو الإسم المصطلح عليه فى دفاتر الحكومة عند تقسيم المديريات ؟

ويحضرنى لهذه المناسبة ما لاحظته على الأسماء العربية فى بلاد السودان

فى هذه البلاد يكثر اسم : أبو بكر وعمر وعثمان ، ويوجد اسم مروان والزبير ومعاوية وشرحبيل ، ويقل اسم على وحسن وحسين وجعفر وزين العابدين ، ويحدث ذلك الآن غير متعمد وغير ملحوظ ، ولكنه فى بداية أمره كان متعمداً ولا شك لكثرة المهاجرين إلى السودان من الأمويين بعد زوال الدولة الأموية ، وكثرة المهاجرين إليه من العباسيين بعد ظهور الفاطميين . أما فى مصر حيث أقام الفاطميون زمناً طويلا ، فليس أشيع بين الأسماء العربية الإسلامية من اسم الحسن والحسين وعلى وسائر الأسماء العلوية ، وقس على ذلك أسماء المسلمين فى إيران وبعض الأقاليم العراقية والهندية ؛ فإن أسماء الخلفاء فيها — ما عدا اسم على — من أندر الأسماء .

وندع الأسماء ونستمع إلى نداء الباعة ، أو ننظر إلى زفة الجهاز والشوار ، أو نقرأ بعض العناوين على أبواب الدكاكين والأماكن العمومية .

فما ذا تفهم من « العبداللاوى شيلة جمل » ، حين ترى أن المنادى بهذا النداء السخيف يحمل فى يديه وحجره عشراً من هذا العبداللاوى الذى ينوء الجمل بواحدة منه ؟

وما ذا تفهم من اللحاف الذى يحمل وحده على مركبة ، أو الكراسى القليلة التى تحمل على مركبة أخرى حين تعلم أن البيت كله ينقل بعد ذلك على مركبة واحدة تتسع لحمولة عشر مركبات من هذا القبيل ؟

ألا تفهم من هذا وذاك ولعاً بالمظاهر الكاذبة يبلغ حد الجنون؟ ألا يصدق وصف الجنون على هذا الولع ، لأنه يطلب المظهر ، ولو لم ينخدع به أحد من الناس ؟

إن الولع بالمظهر الخادع فيه بعض العقل أو بعض الذكاء . أما الولع بالمظهر الذى لا يخدع أحداً ولا يخطر على بال الآدمى أنه قابل للخديعة والانخداع ، فأصدق ما يوصف به أنه ضرب من الجنون ، وأنه يدل على نقص فى إدراك الحقائق وتصورها ، لا يستقيم عليه حال .

وليس فى وسعنا أن نعيد هنا أسماء الأماكن العامة أوعناوين

الذكاكين كما نقرأها ويقرأها من يشاء ، لأننا نمس بها أناساً من الأحياء لا نعنى ذواتهم بما نقول ، فنكتفى من ذكرها بالإشارة إلى مرادفها ، أو مايدل على مثل معناها ومثل ما تشتمل عليه من التناقضات والأعاجيب

فما ذا تفهم إذا عبرت الطريق فرأيت مدرسة للبنات تدعى مدرسة الانشراح ، وحانة تدعى حانة الحكمة ؟ وما ذا تفهم إذا قرأت « جزار الخيرات » وحانوت السلامة ؟

أمثال هذه العناوين تدل على كثير ، وهى على هذا لا تحتاج إلى أكثر من لفتة فى طريق .

وإذا نزلت بمدينة إسلامية فى شهر رمضان فلم تر مسلماً واحداً يحمل سيجارة يدخنها ، ورأيت فى كل شارع مشهود خمس حانات ، فما ذا تفهم من حقيقة الإيمان وحقيقة الأخلاق ونصيبها من الصدق والصراحة فى تلك المدينة ؟ وما ذا تفهم إذا مررت فيها بمائة مسجد ولم تجد فيها جميعاً ما يملأ عشرة مساجد ؟

إنك لتفهم من هذه النظرات العرضية ما يستحق أن يفهم على الأقل وأن يلاحظ وأن يتجاوز الملاحظة إلى التسجيل .

فإذا كان هذا الفهم مما ينفر بعد النظرة الأولى ، فذلك من دواعى الحرص عليه لا من دواعى إهماله وصرف النظر عنه ، كما يحرص على كل ملاحظة إنسانية يخاف عليها الزوال السريع .

لقد ظلمنا « معرفة الطريق » ، وأفرطنا فى الأنحاء عليها ، فوجب أن نعود بها إلى حد من القصد والإنصاف ، لأننا محتاجون إلى سرعة الملاحظة ، ومحتاجون إلى سرعة الاستدلال ، ومحتاجون إلى تسجيل الأطوار المتعاقبة للحقيقة الواحدة فى حالة المفاجأة وحالة الروية والمراجعة .

أما إذا قيل إن هذه المعرفة التى تسميها بمعرفة الطريق قد تسمعنا ما لا يستحق السماع وتسجل لنا ما لا يستحق التسجيل فالخطب هنا يسير وموضع الفصل فيه غير بعيد ، لأننا خلقاء أن نذكر دائماً أن النظر الذى لا يرى من النظرة الأولى ما يستحق أن يقال : لن ينفعنا بشىء ذى بال بعد التمحيص الطويل والتنقيب الكثير .

عباس محمود العقاد

ظهرت اليوم الطبعة الأولى للجزء الثانى من كتاب :

حكايات من الهنـــد

٦٨ حكاية قصيرة

أبدعها الكاتب الهندى إيار

وضمنها الرمز والايحاء والحكمة والموعظة الحسنة

واختارها وترجمها

عبد الحسن الزيات

محام

ثمن النسخة ١٧ عدا البريد